

## هل يريد الإنسان فعلا أن يعيش حراً؟

الطاغية ينهار إذا كف الناس عن الانبهار بشخصه

قد نفهم خضوع الإنسان مُرغماً لقوة معادية احتلت بلاده وسلطت عليه الخسف والذل، ولكننا لا نفهم خضوعه طوعاً لحاكم من بني جلدته، يمتص عرقه، ويسلبه قوته، ويخنق صوته، ويصادر حريته، فيما يقابله بالتمجيد ويصوت له يوم الاقتراع، حتى ليحق التساؤل ما إذا كانت السلطة، على اختلاف مراتبها تُعْمِي البصيرة فيتنازل لها الإنسان طوعاً عن حريته.

الانذهال، ما يجعل العبودية الطوعية متصلة اتصالاً وثيقاً بهذا الافتتان، الصورة السائس كئي القدرة والحضور، التي تنسحب على مجمل الجسد السياسي، هي التي تفتن المسوسين.

وفي هذا نوع من التماهي والتوحد على رأي علماء النفس، فكل إنسان يتماهى مع الطاغية إلى حد يحسب معه أنه يتقمص السلطة عن طريق هذا الإسقاط المتخيل، أي أن توهمه الانبهار في جسد من يمارس الهيمنة يعكس ميله إلى الخضوع لنظام يمارس القهر الدائم.

والحاكم يدرك ذلك الوهم ويعمل على تغذيته بخلق نوع من الشعبية عن طريق حشد الجموع لمساندته ضد خطر خارجي، أو القيام ببعض الأعمال الإنسانية التي توهم بعطفه، ولكنها ليست سوى عمليات سيطرة مدروسة تجعل الشعب مازوخياً تقريبا يستلذ فقره وعذابه، ويجل من كان سبباً فيهما.

ومن ثم فإن العبودية الطوعية في رأي لابويسيه ليست نتيجة نوازح سلطة سادية بقدر ما هي تعبير عن طاعة عمياء متصلة في نفسية الأفراد. وهذا ما لفت انتباه التحليل النفسي لاحقاً حيث أجريت دراسات عن الآليات اللاواعية للهيمنة بغية فهم تلك الظاهرة. ففي مقالة "سيكولوجيا الجماهير وتحليل الأنا" مثلاً، تناول فرويد مسألة التشكيلات الجماعية التي تنظمها الكنيسة أو الجيش، حيث كتل بشرية شرهه إلى السلطة، ومعتظمة للخضوع، وترنو إلى من يتولى القيادة، من واعظ يمثل المسيح، وضابط عسكري يلبي نداء النظام، فترى في القائد بديلاً رمزياً للاب، ومثلاً أعلى للأنثى، أي مثلاً يتمنى كل فرد الاحتذاء به.

هنا أيضاً يتجلى منطق التماهي، حيث يتوحد الناس مع من يملك سلطة دينية أو عسكرية ويعربون عن استعدادهم لطاعة أو امره مهما كان الثمن. أي أنهم، في لحظة انبهار، يتخلون عن نرجسيتهم ويتبعون من يعتبرونه شخصاً غير عادي، فيتماهون معه في نوع من الالتحام الجماعي. وقد استخلص فرويد من تحليله أن تناسق الجماعات التي درسها يعود أساساً إلى روابط ذات طبيعة لبيدية، فالأفراد الذين يشكلون تلك المجموعات يجوبون قائدهم، ويعيشون على وهم أن يبادلهم نفس الحب، بنفس القدر. والحاكم يدرك ذلك، ويستعمل لتكريسه التابع الأيديولوجي والدعائي على نحو يعزز تلك التعلق



أبو بكر العيادي  
كاتب تونسي

في مقالة العبودية الطوعية، التي يرجع عهدها إلى القرن السادس عشر، لاحظ الكاتب الفرنسي إتيان دو لابويسيه في فرع أن ملايين من البشر يعيشون تحت نير سلطة استبدادية غاشمة، ولا يرون حرجاً في ذلك الوضع الخانع الذي يشمل الرعية كلها.

وتساءل في حيرة كيف لإنسان خلق حراً، أن يجد نفسه مغلولاً بالأصفاد، فيبارك وضعه ذاك ويقبل خضوعه طوعاً لهيمنة سلطة جائرة.

## العبودية الطوعية

لم يكن لابويسيه قد بلغ سن الرشد حين صدمته تلك الحقيقة الساطعة، التي لم تثر انتباه غيره ممن ضربت على أبصارهم غشاوة، حتى لكأنه مثل ذلك الطفل، بطل حكاية هانس كريستيان أندرسن "ملابس الملك الجديدة"، الذي كان وحده من رأى ما هو باد أمام أعين الناس جميعاً، فقد غفلوا أو تغافلوا عنه إرضاءً لمشيئة الملك، أو خوفاً من فورة غضبه.

الفلسفة سعت إلى وضع الشروط التي توفق بين السلطة، كضرورة تسير ونظام وأمن، وبين الحرية كقيمة إنسانية عليا



الانبهار بالطاغية والعبودية الطوعية ظاهرتان نفسيتان (لوحة للفنان سيروان باران)

الجدلية بين السلطة وأفراد المجتمع، ففي رأيه أن رغبة العبودية وحب السيد هما فرضيتان غريبتان تنكسران طبيعة اشتغال السلطة الحقيقي، لكونها تمارس على أحرار، أفراداً وجماعات، يملكون حق تبني استراتيجيات مقاومة أو رفض. ويرى فوكو أن عدم خضوع الحرية وجه الهيمنة السياسية، تفاقداً للمظاهر السلبية التي قد تولدها تلك الهيمنة. وفي هذا تأكيد على أن رغبة الشعب في أن يعيش حراً هي التي تضع حداً للعبودية الطوعية، وصدى لما قاله لابويسيه حين أكد هو أيضاً أن كسر طوق العبودية لا يكون إلا بتطوير رفض الخدمة، فالطاغية ينهار حين يكف الناس عن الانبهار بشخصه، والإيمان بعظمته. فمفكر آخر أثار قضية الحرية كشرط أساس لا خلود للسلطة من دونه هو ميشيل فوكو، ولكنه لم ينظر إلى المسألة من باب العبودية الطوعية، بل من باب العلاقة

إبرام عقد أو ميثاق يوافق عليه الجميع عن قناعة وتبصر يراعي حقوق كل طرف. في "رسالة في الحكم المدني" دافع جان لوك مثلاً عن حق الأفراد في إقرار المجتمع المدني والسلطة السياسية التي تشرف عليه، فالدولة في نظره توجد للحكم في النزاعات بطريقة محايدة، وضمان الحريات الفردية والحقوق الأساسية وفي مقدمتها الملكية والأمن. في مقابل ذلك يوافق المواطنون على الامتثال للقوانين التي من شأنها حماية حقوقهم كاملة. أي أن الخضوع في هذه الحالة معدوم، ما دامت السلطة قائمة على موافقة الشعب، فلا رغبة هنا في الخضوع، وإنما هو انخراط عقلائي في مقتضيات الحياة المشتركة، فإذا أخلت السلطة بتعهداتها، وتحولت إلى نظام متعطرس جائر، حق للشعب أن يتمرد ويثور عليه، حسب جان لوك الذي يؤكد

العاطفي ويعمق تلك القناعة حتى يمهد لعبادة الشخصية. ولكن سواء انهضت المجموعة بالطاغية، كما يعتقد لابويسيه، أو انجذبت إلى القائد انجذاب المعدن إلى مغناطيس على رأي فرويد، فإن ثمة مسألة تظل مغيبية في خطابيهما، ونعني بها حرية البشر أمام السلطة أيًا ما يكن مصدرها. ألا يكون خضوعهم ناجماً ببساطة عن قبول واع؟

العلاقة الجدلية

لقد سعت الفلسفة السياسية إلى وضع الشروط التي توفق بين السلطة، كضرورة لتسيير البلاد والمحافظة على سلامة ترابها، وتنظيم شؤون العباد وحفظ أمنهم، وبين الحرية كقيمة إنسانية عليا، لا يمكن التنازل عنها، واقتدرت

ومما لاحظته الفتى لابويسيه هو أن مصدر الطغيان لا يكمن في جبن الشعب أو خوفه، بل في ما أسماه العبودية الطوعية، أي أن حالة الاستعداد لم تكن مفروضة في الغالب، بقدر ما كانت مرغوباً فيها، فالناس يرغبون في أن يعاملهم الطاغية معاملة السيد لعبيده، فيسلبهم أملاكهم وحتى أرواحهم برضاهم، ما يعني أن السلطة السياسية لا تتجلى بكل عنفها وقسوتها إلا لأن الأفراد يمدونها بالعصا التي ستنهال على ظهورهم. ولابويسيه يفسر ذلك بأن السلطة في حال جورها والاستبدادها تشكل لدى المهيم عليهم موضع رغبة غامضة، فهم غالباً ما يكونون منبهرين بالطاغية حد

## ثلاثون فناناً سورياً يحتفون افتراضياً ببيكاسو عبر معرض عالمي في ملقا

في بيروت. ومن الفنانين السوريين المشاركين في معرض بيكاسو كذلك نجد الفنان التشكيلي أكرم العلي، وهو من مواليد عروس الفرات دير الزور عام 1955، وخريج جامعة دمشق قسم الفلسفة.

الفنانون السوريون يشاركون إلى جانب ألف فنان من مختلف أنحاء العالم في المعرض بشكل افتراضي

ويستخدم العلي أسلاك النحاس والفضة إلى جانب ألوان اختارها بعناية ليحولها إلى لوحات فنية تجسد رسالته في عالم التشكيل، ويشارك بها في المعرض كجزء من تجربته الفنية التي شهدت تحولات كبيرة على امتداد العقود الماضية. ويعمل الفنان على تطوير مشروعه الفني بشكل مستمر من خلال إدخال أسلاك النحاس والفضة إلى مجسمات الخشب التي يصنعها، إضافة إلى الرسم على الحجر والرخام وزخرفة الأواني الفخارية من خلال تلطيحها بهذه الأسلاك.

بالصمة المميزة التي سبقتها الفنان السوري في هذا المعرض لكون الأعمال المشاركة جيدة وستندت وجودها. وعن انتشار ظاهرة المعارض الافتراضية التشكيلية قال جروان "هي تجربة حرة وراقية لديموسة الحركة الفنية واستمرار التواصل الفني بين جميع فناني العالم ومتذوقي الفن فضلاً عن توثيق الأعمال الفنية، كما تعتبر هذه المعارض نقطة انطلاق في النهوض بالمشهد الثقافي وتشجيع الإبداع الفني".

وفي لوحات جروان الأخرى نجد حضوراً مستمراً للأمل والإنكسار عبر تناسق لوني ممتد يجذب المتلقي تجاه التكنيك المستخدم في اللوحة بطريقة ساعدت الفنان على بناء شخصية فنية خاصة كرسها لخدمة القضية الفلسطينية، فالفن بالنسبة إليه يجب أن يحمل رسالة ولاسيما المعبرة عن إنساناً وقضاياها. ونذكر أن الفنان التشكيلي علي جروان عضو في الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين، وهو حاصل على عدة جوائز منها الجائزة الثالثة بمسابقة يوم القدس العالمي، كما أقام وشارك في العديد من المعارض الفردية والجماعية داخل سوريا وساهم في الحملة العالمية لحق العودة برسم جدلية القدس مع مجموعة من الفنانين

ويمتلك الشبعماني مسيرة فنية تناهز الأربعين عاماً رسم لنفسه فيها خطاً فنياً خاصاً به، حيث تتميز الألوان التي يختارها في لوحاته بعنصر الانبهار وخاصة اللون الأزرق بدرجاته والذي يصنع منه عالم تحاكي الإنسان وتنقله إلى فضاء من الطمأنينة والسكون. وفي إطلالة على تجربة فنية أخرى تمثل البيوت المختزنة للذكريات في زواياها وبين جدرانها جوهراً اللوحات الثلاث التي يشارك بها الفنان التشكيلي علي جروان في معرض بيكاسو العالمي. وبين جروان هذه اللوحات بإحساس عال كما طغت عليها درجات اللون الأزرق مع دمجها لألوان أخرى تداخلت مع مفردة الطيور التي تعطي الأمل والتفاؤل للمشاهد.

وفي تصريح إعلامي له بين جروان أن فكرة المشاركة في المعارض الفنية العالمية جديدة بالاهتمام وتمثل رافداً للحركة التشكيلية على الساحة السورية من حيث الاحتكاك مع تجارب فنانيين أجانب، معتبراً أن الفنانين السوريين المشاركين في المعرض اجتمعوا على إيصال رسالة واحدة مفادها أن فنانتنا يجب الحياة ويعمل لبناء وطنه. وبين جروان أن الفن التشكيلي السوري الذي كان رائداً قبل الحرب لا يزال يتصدر المشهد العربي والدولي، ولم تحبطه الحرب وتبعاتها، مغرباً عن تفاؤله

خامة الإبريليك، تعكس رؤيته البصرية والفكرية عبر رموز وخطوط وألوان هي مزيج بين الفرح والحزن معبرة عن حالته النفسية والفترة الزمنية التي رسم فيها لوحته.



أعمال لها بصمة وهوية وقضية خاصة

ان هدف المشاركة السورية هو إظهار التطور الذي عرفه المحترف التشكيلي السوري خلال السنوات الأخيرة.

ويشارك الفنان الشبعماني في معرض بيكاسو بلوحة عنوانها "المستقبل" على

ملقا (إسبانيا) - تتواصل فعاليات معرض بيكاسو العالمي للفن التشكيلي في مدينة ملقا الإسبانية، مسقط رأس الفنان، إلى غاية الثلاثين من نوفمبر الجاري. وقد بات المعرض ظاهرة دولية تحظى سنوياً بمشاركة واسعة من قبل الفنانين من مختلف أنحاء العالم، يحيون مجتمعين تتركى أحد أهم الفنانين الذين أنجبهم القرن العشرون.

والى جانب مشاركة نحو ألف فنان من مختلف مناطق العالم، يتسم المعرض هذا العام بمشاركة سورية واسعة قوامها 30 فناناً وفنانة من سوريا، بعد أن كانت تقتصر في دورات سابقة على مشاركات فردية.

ويقام المعرض بشكل واقعي للفنانين الإسبان وبصورة افتراضية للفنانين من باقي أنحاء العالم، نظراً إلى الظروف التي فرضتها جائحة كورونا. ووفق منسق المعرض عن الجانب السوري الفنان التشكيلي رافت الشبعماني فإن الفنانين السوريين الذين تم اختيارهم يمثلون جميع محافظات البلاد، وقد قدموا أعمالاً من وحي أسلوب بيكاسو على مدار تجربته الفنية.

واعتبر الشبعماني المعرض منبرا للإبداع الفني وخيمة وارفعة يلتقي في رحابها الفنانون التشكيليون العرب والأوروبيون ويتبادلون من خلالها الخبرات والتجارب الفنية، لافتاً إلى